

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ
إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ
شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ

ثُمَّ وَلَيَتَمُّ مُدِيرِينَ

٢٥

إن من عظام الأمور وكبائر الذنوب التي تهلك صاحبها، وتفسد عليه أعماله: تلك الخصلة الذهيمية: العجب(1)؛ قال الراغب الأصفهاني: "العجب ظن الإنسان في نفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها، قال بعضهم: هو استعظام النعمة والركون إليها، مع نسيان إضافتها إلى المنعم عز وجل".

قال الله تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيَتَمُّ مُدِيرِينَ} [التوبه:25]، وقال تعالى عن قارون: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيَتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوْلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثُرُ جَمِيعًا وَلَا يُسَأَّلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} [القصص:78].

وقال تعالى: {وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثُرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعْزَزُ نَفْرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظْنُ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبْدًا} [الكهف:34-35].

فلما أُعجب بما عنده نسي أن هذا فضل الله عليه، وأن الذي أعطاه قادر على أن يأخذه ويعود فقيراً كما كان، فكانت عاقبة ما نكره الله: {وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبِحَ يُقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا} [الكهف:42].

روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "بِنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلْةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مَرْجُلٌ جُمْتَهُ" (2)، إذ خسف الله به، فهو يتجاذب (3) إلى يوم القيمة" (4).

وروى البزار من حديث أنس رضي الله عنه: "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَوْلَا تَكُونُوا تَذَنَّبُونَ، لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ" (5)، وروى البزار من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ثَلَاثَ مَهْلَكَاتٍ: شُحٌّ مَطَاعٌ، وَهُوَ مُتَبَعٌ، وَإِعْجَابٌ الْمَرءُ بِنَفْسِهِ" (6).

وُرُوِيَّ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "الهلاك في شيئين: العجب والقنوط" (7)، وقال ابن قدامة رحمه الله: "وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعِجْبَ يَدْعُ إِلَى الْكِبْرِ لِأَنَّهُ أَحَدُ أَسْبَابِهِ، فَيَتَوَلَّ مِنَ الْعِجْبِ الْكِبْرُ، وَمِنَ الْكِبْرِ الْأَفَاتُ الْكَثِيرَةُ، وَهَذَا مَعَ الْخَلْقِ؛ فَمَا مَعَ الْخَالِقِ: إِنَّ الْعِجْبَ بِالطَّاعَاتِ نَتْيَةُ اسْتَعْظَامِهَا، فَكَانَهُ يَمْنُّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِفَعْلِهَا، وَيَنْسِي نَعْمَتَهُ عَلَيْهِ بِتَوْفِيقِهِ لَهَا، وَيَعْمَى عَنْ آفَاتِهَا الْمَفْسَدَةِ لَهَا؛ وَإِنَّمَا يَتَفَقَّدُ آفَاتِ الْأَعْمَالِ مِنْ خَافَ رِدَّهَا دُونَ مِنْ رِضْبِهَا وَأَعْجَبَ بِهَا، وَالْعِجْبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِوُصْفِ كَمَالِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ؛ فَإِنْ ضَافَ إِلَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَرَى حَقًا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ إِدْلَالًا، فَالْعِجْبُ يَحْصُلُ بِاسْتَعْظَامِ مَا عُجِّبَ بِهِ، وَالْإِدْلَالُ

يُوجب توقع الجزاء، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده"(8). اهـ.

وعلة العجب: الجهل المضاد، وعلاجه: المعرفة بأن ذلك الذي أثار إعجابه نعمة من الله عليه من غير حق سابق له، ومن غير وسيلة يدللي بها، ومن ثم ينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله؛ وإذا تم علم الإنسان لم ير لنفسه عملاً ولم يُعجب به؛ لأن الله هو الذي وفقه إليه، وإذا قيس بالنعم لم يف بمعشار عشرها، هذا إذا سلم من شائبة وسلم من غفلة، فأما والغفلات تحيط به، فينبغي أن يغلب الحذر من رده، ويحاف العقاب على التقصير فيه: هذا في علاج العجب إجمالاً، أما علاج حالاته تفصيلاً: فإن ذلك يختلف باختلاف ما يحدث به العجب، فإن كان ناشئاً عن حالة البدن وما يتمتع به صاحبه من الجمال والقوه ونحوهما، فعلاجه التفكير في أقدار باطنها، وفي أول أمره وآخره، وفي الوجه الجميلة والأبدان الناعمة، كيف تمرغت بالتراب وأنتنت في القبور حتى استقررتها الطياع؟ وإن كان العجب لكترة الأموال والأولاد والخدم والأقارب والأنصار فعلاجه أن يعلم ضعفه وضعفهم، وأن للمال آفات كثيرة وأنه غادٍ وراح ولا أصل له.

ومر بالحسن البصري شاب عليه بزة له حسنة، فدعاه فقال له: "ابن آدم مُعجب بشبابه، مُحب لشمائله، كأن القبر قد وارى بذلك، كأنك قد لقيت عملك، ويحك داوٍ قلبك فإن مراد الله من العباد صلاح قلوبهم"؛ قال مسروق: "كفى بالمرء علمًا أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يُعجب بعمله"(9).

قيل للحسن البصري: "من شر الناس؟ قال: من يرى أنه أفضّلهم، وقال بعضهم: الكاذب بنهاية البعد من الفضل، والمُرائي أسوأ حالاً منه لأنّه يكذب بفعله وقوله، والمُعجب أسوأ حالاً منهما لأنّهما يريان بفعله وقوله: والمُعجب أسوأ حالاً منهما لأنّهما يريان نقص أنفسهما ويريدان إخفاءه، والمُعجب عمّي عن مساوئ نفسه ورآها محسّن وسُرّ بها، وقد قال إبليس: إذا طفرت من ابن آدم بثلاث لا أطالبه بغيرها: إذا عجب بنفسه، واستكثر عمله، ونسى ذنوبه"(10).

والخلاصة:

"أن العجب آفة كبيرة ومرض خطير من أمراض القلوب، وإن لم يتداركه صاحبه فإنه يهلكه، ويكون سبباً في بطلان عمله وسقوطه من عين ربّه".

(1) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص306.

(2) هي مجتمع الشعر إذا تلّى من الرأس إلى المنكبين.

(3) المراد أنه ينزل في الأرض مضطرباً متدافعاً.

(4) ص 1132، برقم 5789، وصحّيحة مسلم ص 866، برقم 2088.

(5) كشف الأستار (4/244) برقم 3633، وقال المُنذري في كتابه الترغيب والترهيب (546-3/545): رواه البزار بإسناد جيد.

(6) (1/59) برقم 80، وصحّحه الشيخ الألباني السلسلة الصحيحة برقم 1802.

(7) مختصر منهاج القاصدين، ص298-299.

(8) المرجع السابق نفسه.

(9) يتصرّف واختصار من كتاب نظرة النعيم (5357-11/5358).

(10) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص306-307.

المسلم

المصادر: